المسرح والمجتمع المتغير في السودان

سعد يوسف عبيد

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا– كلية الموسيقى والدراما – قسم الدراما

المقدمة: إنه لمن المعروف بالضرورة تلك العلاقة العضوية بين المجتمع والمسرح إذ إن العرض المسرحي لا يقوم إلا في وجود الجمهور لحظة الإبداع نفسه ، وبالتالي فإن الجمهور شريك في العرض فضلاً عن مناقشة العرض لقضايا تهم جمهور المتفرجين الممثلين لقطاعات وشرائح المجتمع المختلفة

والمسرح ، وإن لم يكن فناً قديماً متجذراً عند العرب والأفارقة ، فإنه قد أصبح اليوم من أكثر الفنون تأثيراً على المجتمعات العربية والأفريقية التي يمكن وصفها بأنها مجتمعات متغيرة متحولة بسبب مغيرات اقتصادية وسياسية وغيرها . ولما رأى كاتب هذه الورقة أن السودان صورة مصغرة من العالمين العربي والأفريقي بكل مشاكلهما ومتناقضاتهما، فقد آثر أن يكون تناوله للمسرح والمجتمع المتغير عن الواقع والمتوقع من المسرح في مجتمعات السودان المتغيرة كنموذج للوطن العربي وإفريقيا.

إن محاولات الغوص في تلافيف إجابة السؤال عن من الذي يغير الآخر ؟ المسرح أم المجتمع؟ قد تدخل الباحثين في جدال يقودهم إلى التعصب إلى احدهما ، غير أن كاتب الورقة يرى أن العلاقة هنا علاقة تأثير وتأثر متبادلة . وبالتالي فإن النظر في قضية المسرح والمجتمع المتغير تقودنا إلى تبين أن المجتمع يتغير بعوامل مختلفة،داخلية أو خارجية، طبيعية أو مصنوعة ،والمسرح هو واحد من بين تلك العوامل . ومن الجانب الآخر فإن المسرح يتأثر بالتغير الحادث في المجتمع الذي ينتمي إليه فإن ثبت المسرح شكلاً ومضموناً في مجتمع متغير تجمد ومات. لذا فإن التغيرات المتسارعة في المجتمعات السودانية والمجتمعات العربية تشكل تحدياً كبيراً للمسرحيين لابتداع أساليب جديدة تواجه هذا التغير وتوجهه.والسؤال هنا: هل يواجه مسرحنا بالجدية الكافية هذا التحدي؟ نحاول في السطور اللاحقة الإجابة عن هذا السؤال وعلى ذلك يمكن القول إنَّ (المجتمع)– أى مجتمع _ لايمكن وصفة بالثبات حيث إنه هو كائن حي متحرك يحمل فى داخله

المجتمع والتغير:في البدء يتوجب علينا تحديد المعنى المراد بمصطلحي (مجتمع Society) و(تغير Changement) فالمجتمع لغة له عدد من المعاني فهو يعني مكان الاجتماع كما يعني (الجماعة من الناس) ويفصل 1صاحب المعجم الفلسفي في معاني المصطلح فيضيف بأنه يطلق بمعنى أخص (على المجموع من الأفراد تؤلف بينهم روابط واحدة ، تثبتها الأوضاع والمؤسسات الاجتماعية،ويكفلها القانون أو الرأي العام). 2 وعلى ذلك يكون لكل مجتمع عناصر مشتركة من القيم والسلوكيات والثقافة والمظاهر الحضارية، تميزه عن غيره من المجتمعات.

أما التغير في المجتمعات فهو التحولات التي تحدث في تلك القيم والسلوكيات والثقافة والمظاهر الحضارية لمجتمع ما. والمتغير ــ حسب المعجم الفلسفي _ هو: (ما يمكن تغييره ، أو ما يمكن تغيره أو ما ينزع إلى التغير). 3

وعلى ذلك يمكن القول إنَّ (المجتمع) – أي مجتمع– لا يمكن وصفه بالثبات حيث إنه هو كائن حي متحرك يحمل في داخله القابلية للتغيير بحيث يمكن أن تغيره عوامل من داخله أو مؤثرات خارجية.

عوامل تغير المجتمع: إن التغييرات التي تحدث في أحد مناحي حياة المجتمعات (الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية ..الخ) تؤدي بدورها إلى تغيرات في المناحي الأخرى ، إذ إن تغير النظام الاقتصادي يؤدي إلى تغير في شكل الثقافة ، كما تؤدى

[1] نفس المرجع ، ص 330

[2] د. زكريا إبراهيم : مشكلة الفن ، القاهرة ، مكتبة مصر ، بدون تاريخ ، ص 106

[2] نفس المرجع ' ص 119

التغيرات السياسية إلى تغيرات في الاقتصاد...إلخ عليه فإنه يمكن القول إنَّ التغير في أحد مناحي المجتمع هو تغير للمجتمع بكامله.

لعله يمكن أن نلاحظ أن أي من تلك التغيرات تحدث كنتاج لعوامل مختلفة بعضها عوامل طبيعية مثل التحولات المناخية والكوارث الطبيعية كالجفاف والتصحر والفيضانات والزلازل ، والبعض الآخر من صنع الإنسان كالمخترعات و الطفرات التكنولوجية والفنون والثورات والحروب والهجرات . بعض هذه العوامل تحدث تغيرات سريعة دراماتيكية مثل الكوارث الطبيعية و الحروبات والطفرات التكنولوجية ،بينما تكون التغيرات التي تحدثها عوامل مثل الفنون والآداب تغيرات بطيئة.

إن التغيرات التي تحدث في المجتمعات المختلفة تتراوح بين السلبي والايجابي ، فالتغير السلبي هو الذي يقوم بخلخلة القيم التي يقوم عليها المجتمع المعين وتميزه عن غيره ، بينما يكون التغير ايجابياً حينما يساهم في تطوير حياة الأفراد ويعضد قيمهم العليا ومميزاتهم الحضارية.

المسرح والتغيير :ظلت الفنون بمختلف أشكالها وألوانها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع تساهم في تشكيله وتوجيهه وتغييره، فأصبح (الفن من أجل المجتمع) من الحقائق الثابتة في مواجهة دعوة (الفن من أجل الفن) التي لم نجد من يأبه لها كثيراً. لقد ذهب د. زكريا إبراهيم للتأكيد على أن (ملاحظة الواقع نفسها قد أظهرت لنا بوضوح أن الفن عمل اجتماعي) . إن ص4ح ذلك الارتباط بين عموم الفنون والمجتمع فإنه يصبح أكثر وضوحاً عند النظر إلى فن المسرح (ونحن نعرف أن ثمة فنوناً أدبية عديدة تتصف بصبغة اجتماعية واضحة في جانبها الإنتاجي ، لأنها لا يمكن أن تتحقق إلا على مرأى من الجمهور كما هو الحال مثلاً بالنسبة إلى الفن المسرحي).[5]

إن المتأمل لنظريات المسرح منذ القرن الخامس قبل الميلاد وحتى النظريات المعاصرة يمكن أن يلاحظ أنها – وإن اختلفت في طرائقها – تؤكد على تلك العلاقة الوثيقة بين مبدع المسرح ومتلقيه ، كما تؤكد على دور المسرح في تغيير الإنسان والمجتمع. فإن تناول أرسطو في نظريته للمسرح – باعتباره محاكاة للفعل الإنساني – فيه تركيز على(التطهير) و التطهير6 – في حد ذاته– تغيير للإنسان ، ليس للإنسان المفرد فحسب، بل يحدث هذا التغيير للمجموعة داخل المسرح فهو هنا تغيير للمجتمع (مهمة الشاعر ليست رواية ما وقع فعلاً ، بل ما يمكن أن يقع) عليه فإن المسرح لا يستهدف نقل الواقع أو رواية وقائع التاريخ كما حدثت ، بل هو فن قاصد يستهدف تبصير الناس بما يمكن أن يقع إن سارت حياتهم على ما هي عليه . فهي –إذن– دعوة للتغيير . قد لا نتجاوز الحق إن قلنا بأنه – حتى معارضي أرسطو من معاصرينا وسابقيهم، يتفقون في أن المسرح لا يستهدف نقل الوقائع ، بل التغيير الاجتماعي ، يقول بيتر بروك (إذا أثبتت المسرحية أي شيء نحن نؤمن به فعلاً فلا جدوى منها اللهم إلا إذا أكدت – بالطبع– فكرة أن المسرح يمكن أن يساعدنا على رؤية أفضل) [7] ثم ينظر بروك في غضب معلناً موت المسرح الاجتماعي لكنه يؤكد على الحاجة الماسة للتغيير الاجتماعي8 (المسرح الاجتماعي مات ودفن. المجتمع بحاجة إلى تغيير وهي حاجة ملحة) ، ويؤكد[9] المسرحيون العرب والأفارقة _ بمن فيهم من الرافضين للشكل الغربي للمسرح _ على الدور الاجتماعي الكبير للمسرح (المسرح انعكاس لاحتياجات اجتماعية ووظيفة ودور اجتماعيين). عليه [10] فإننا نعتبر المسرح عاملاً من عوامل التغيير الاجتماعي ، وهو عامل ذو أهمية كبيرة إذ إنه ، وإن كان التغيير الذي يحدثه بطيئاً ، إلا أنه أكثر ثباتاً حيث أن رسالة المسرح تتخذ الأسلوب غير المباشر بعيداً عن الوعظ والإرشاد المباشر.

---

[4] راجع : ارسطو : فن الشعر ، تقديم د.إبراهيم حمادة ، الشارقة ، مركز الشارقة للإبداع الفكري ، ص 111

[5] نفس المرجع ، ص 137

[6] بتر بروك ، ترجمة : فاروق عبد القادر : النقطة المتحولة: أربعون عاماً من استكشاف المسرح ، الكويت ، عالم المعرفة ، ص 86

[7] د . يوسف عيدابي : مسرح لعموم أهل السودان (الخرطوم : منشورات المسرح الوطني ، مارس 2006) ص 38

[8] نفس المرجع ، نفس الصفحة

• لكاتب الورقة أفكار منشورة حول ابتداع شكل جديد للمسرح السوداني متكيء علي الممارسات الشعبية ذات الصبغة الدرامية آخرها دراسة قدمت لمؤتمر (الطقوس والممارسات الشعبية والعرض المسرحي) الذي عقد بجامعة السودان في ديسمبر 2005

[10] راجع : بابكر بدري ، تاريخ حياتي ، (الخرطوم ، مطبعة مصر ، بدون تاريخ) ص 47

[10] راجع : د. خالد المبارك ، حرف ونقطة ، ط2 (الخرطوم :منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية ، 2005) ص ، 127

والتغيير الذي يحدثه المسرح هو تغيير إيجابي بالنظر إلى أن المسرح يعرض المظاهر السالبة تحت الضوء بحيث يمكن المجتمع من الانتباه إليها والعمل الجاد على التخلص منها.

رغماً عن كل ما ذكرنا فإنه يجب التنبيه هنا إلى أنه من أجل أن يتمكن المسرح من تغيير المجتمع يجب أن يقوم المسرح بدءاً بتغيير نفسه ويجب عليه أن يعي بطبيعة التغيرات التي تحدث في المجتمع لصياغة شكل المسرح الذي يناسب مواجهة تلك المتغيرات• مع التأكيد علي وعي المسرحيين الكامل بتلك المتغيرات ودراستها وفرز السلبي منها والايجابي.

المجتمع السوداني والتغير:إن مصطلح (المجتمع السوداني) هو مصطلح غير دقيق مثل مصطلح (المجتمع العربي), حيث أن الحدود السياسية لجمهورية السودان تضم مئات القبائل و اللغات واللهجات والثقافات المتجاورة, المتحاورة والمتصارعة. وهي بالتالي تنتج عدداً من المجتمعات المختلفة وهي مجتمعات في حالة تغير متواصل نتيجة لهذا التحاور والصراع بالإضافة إلى المؤثرات الخارجية . بعض هذه التغيرات تعمق الحوار السلمي فتقود إلى إيجاد جسور بين هذه المجتمعات و البعض الآخر تغذي الصراع فتتوسع الهوة بين المجتمعات.

عليه فإن المجتمعات السودانية تحفل بشتى أشكال التغيير وتصنيفاته .. ففيها تغيرات سالبة تعمق الصراعات بينها وتسهم في تخليها عن قيمها ومثلها العليا ،كما فيها من متغيرات إيجابية تقبل بثقافة الآخر وتتعايش معه دون أن تفقد قيمها ومثلها .. فيها تغيرات طبيعية تنتج عن الجفاف والتصحر والفيضانات المؤدية إلى النزوح والهجرة .. كما فيها من متغيرات من صنع الإنسان كالحروبات الأهلية .كما أنه يمكن أن نلاحظ أن المجتمعات السودانية أصبحت سريعة التغير حيث إن غالب التغييرات التي تظهر عليها هي ناتج الكوارث الطبيعية والحروبات بما تحدثه من تأثيرات مباشرة و سريعة على العادات والتقاليد وسبل كسب العيش ، بالإضافة إلي تأثيرات الهجرة الداخلية والخارجية علي تقاليد وعادات ولغات المجتمعات المهاجرة والمستقبلة للمهاجرين.

المسرح والمجتمع في السودان:

السودان ، بهذا التنوع الثقافي ، أنتج عدداً كبيراً من الممارسات الشعبية ذات الصبغة المسرحية والدرامية كحلقات الذكر عند المسلمين والرقصات الشعبية والطقوس عند القبائل النيلية ، إلا أن المسرح بشكله الموجود حالياً فإنه يمكن القول بأنه قد وفد إلى السودان من الغرب عبر العرب منذ حوالي قرن واحد من الزمان ،وأنه قد ظل مرتبطا بالمجتمعات السودانية يؤثر فيها ويتاثر بها، رغماً عن أنها لم تتمكن من إنتاج مسرحها الخاص.

إن غالبية البدايات الأولى للمسرح في السودان (المسرح الوافد) ارتبطت بالتعليم وكان في قياداتها المعلمون و طليعة المتعلمين والمثقفين ، فبابكر بدري أسس مدرسته الأولى في مدينة رفاعة (بوسط السودان على النيل الأزرق) عام 1903 ثم ما لبث أن قدم مسرحاً كان قوامه تلاميذ المدرسة. فكأنما[11] هو لم يكتف بتغيير المجتمع عبر تغيير الأجيال الناشئة وتعليم البنات ، بل حاول استخدام المسرح في تغيير كامل أفراد المجتمع . أما عبد القادر مختار (مأمور مدينة القطينة بوسط السودان على النيل الأبيض) فقد قدم عام 1909 مسرحية (المرشد السوداني) التي كانت تحمل الدعوة الصريحة لتغيير المجتمع و في[12]سنوات لاحقة قامت فرق ومجموعات في مدن أخرى (مثل سواكن وبورتسودان ومدني) بتقديم[13] عروض مسرحية (عربية وأجنبية مترجمة) تستهدف نقل المجتمع من حالة البداوة إلى عالم التمدن بمحاربة التقاليد التي تقف في وجه التعليم والتحضر ، وعلى ذات النهج سار مسرح بخت الرضا ومسرح كلية غردون.

في عشرينيات القرن الماضي ، وبعد أن خطا التعليم خطوات مقدرة ، بدأت الحركة المسرحية الناشئة في (نادي الخريجين) بأم درمان في محاولاتها لتغيير المجتمع وخلق الوعي الجماهيري اللازم نحو ضرورة الانعتاق من المستعمر ، فقد كتب حسن

---

[12] راجع : نفس المرجع : ص ، 138

[13]راجع : حسن نجيلة : ملامح من المجتمع السوداني ،ط 4 (الخرطوم :الدار السودانية للكتب ، 1972) ص 96

نجيلة _ الذي شهد عرضاً لمسرحية (صلاح الدين الأيوبي) واصفاً تأثير العرض على مجتمع العاصمة والحماسة التي قوبل به العرض الذي جعلهم يحسون كأنما مجد العروبة والإسلام قد عاد. 14 لقد أسهم المسرح بقدر وافٍ في التحولات الاجتماعية التى قادت إلى قيام حركة وطنية كان من بين نتائجها قيام ثورة عام 1924 التي كان أحد قادتها (علي عبد اللطيف) الذي كان أحد المشاركين في تقديم عرض مسرحية صلاح الدين الأيوبي. [15]

ولعل هذه الفترة كانت قد حفلت بمحاولات استخدام المسرح في تغيير المجتمع من حالة الاستسلام إلي حالة مقاومة المستعمر في مختلف بقاع الوطن العربي، فقد ذكر الأستاذ حاتم السيد في مداخلته في ملتقى الخرطوم أن مسرحية صلاح الدين الأيوبي كان قد قدمها الأردنيون في عشرينيات القرن الماضي. [16]

شهدت فترة الثلاثينيات من القرن العشرين ظهور الكتاب المسرحيين السودانيين الذين جاءت كتاباتهم _ في مقاربتها للقضايا الوطنية_ متكئة على التاريخ والحكاوي الشعبية في صياغة من الشعر الشعبي ، أمثال خالد أبو الروس وإبراهيم العبادي . وقد جاءت بعض هذه الكتابات تسير في اتجاه إقناع أفراد المجتمع بضرورة نبذ القبلية والإيمان بالوحدة الوطنية في مواجهة لسياسة المستعمر التي كانت تعمد إلي تكريس التشرذم والعصبيات القبلية ، ومن الأمثلة الواضحة لذلك مسرحية إبراهيم العبادي (الملك نمر).

بعد حصول السودان على استقلاله عام 1956 نشط مسرح الكوميديا الذي اتجه نحو المجتمع يحاول إحداث تغييرات كبيرة فيه بمعالجة بعض الأمراض والظواهر الاجتماعية كالدجل والشعوذة والمغالاة في المهور والرشوة والفساد في الخدمة المدنية ، وكان غالب تلك المعالجات تأتي عبر شخصيات نمطية ابتدعها عثمان حميدة والفاضل سعيد ومحمود سراج وغيرهم.

بعد عام 1967 نشطت الحركة المسرحية في السودان في العاصمة والأقاليم وصارت لها مواسم منتظمة فأصبح تأثيرها أكبر ودورها في تغيير المجتمع أكثر وضوحاً . ظلت هذه الفترة _ وحتى اليوم_ تشهد تحولات سياسية كبيرة من انقلابات عسكرية وثورات شعبية وحروبات أهلية واتفاقيات سلام وحروبات في بعض دول الجوار وجفاف وتصحر و فيضانات ، كما شهدت _ أيضاً _ استخراج وتصدير البترول والبدء في تنفيذ سد مروي. كل تلك العوامل وغيرها قد أدت إلى حراك اجتماعي كبير وهجرات وتهجير ونزوح فتحولت البنية الاجتماعية في غالب مناطق السودان وبدأت تظهر تغيرات في ثقافات الكثير من المجتمعات السودانية سواء تلك التي وقع عليها الأثر المباشر لتلك العوامل أو التي تأثرت بشكل غير مباشر.كما يمكن ملاحظة أن وتيرة التغير الاجتماعي في العقدين الأخيرين من هذه الفترة ، كانت أسرع من العقدين السابقين لهما. عليه فإننا نقسم هذه الفترة إلي مرحلتين :

الأولى (67_1987)

والثانية (87_2006).

المرحلة الأولى :

خلال المرحلة الأولى واكبت الحركة المسرحية في السودان التغيرات الاجتماعية ، بل أسهمت في إحداثها . لقد جاءت هذه المرحلة في أعقاب قيام ثورة أكتوبر الشعبية وما نتج عنها من تحولات سياسية واجتماعية ، إذ كان لابد من أن يواكب التغيير السياسي تغيير في المجتمع فبدأ المثقفون ينظرون في العادات والتقاليد الاجتماعية التي تكبل انطلاق المجتمع للتخلص منها كما تم التخلص من الدكتاتورية التي كانت تكبل الانطلاق السياسي.

---

[14] نفس المرجع : ص

[15] راجع : مضابط الجلسة الرئيسية لملتقي الخرطوم للمسرحيين العرب 21 ديسمبر 2006

[15] عثمان علي الفكي ، سعد يوسف : الحركة المسرحية في السودان (أم درمان ، المسرح القومي ، 1979) ص ، 7

ففي مسرحية (علي عينك يا تاجر) التي قدمت في موسم (1969/68) من تأليف بدر الدين هاشم وإخراج الفكي عبد الرحمن دعمت المسرحية موقف الجيل الجديد المتعلم من عدد من التقاليد وعلى رأسها تزويج الفتاة لمن يرضى به ولي أمرها لا من ترضى به هي فظاهرت المسرحية رغبة ذلك الجيل في المصادمة (لجرأتهم وحماستهم من أجل التغيير).

عندما لاحظ المسرحيون أن الحياة المدنية قد بدأت تفقد السودانيين بعض خواصهم وقيمهم نشطوا لتقديم عدد من العروض تتصدى لبعض الظواهر الاجتماعية السالبة ، فتصدت مسرحية (المنضرة) تأليف حمدنا الله عبد القادر، إخراج مكي سنادة لظاهرة التفكك الاجتماعي (حيث أصبح الجار لا يعلم شيئاً عن جاره ، وصار كل فرد في المجتمع كياناً قائماً بذاته) كما تصدى حسن عبد المجيد بمسرحية (الرفض) لظاهرة تقليد الشباب الأعمى لصرعات الموضة القادمة من الغرب كظاهرة (الهيبز).

ومن جانب آخر فقد انتبه المسرح لتنامي ظواهر الفساد في الخدمة المدنية كالرشوة والمحسوبية والتملق والتسويف في قضاء حوائج الناس وتأثير تلك الظواهر على المجتمع ،وقد ظهر ذلك في عدد من المسرحيات من بينها مسرحية (أكل عيش) تأليف وإخراج الفاضل سعيد و(التمر المسوس) تأليف عبد المطلب الفحل وإخراج عثمان قمر الأنبياء.

لم يكتف المسرح في تلك المرحلة بالاستجابة لمتغيرات المجتمع أو إحداث تغييرات فيه عبر مضامين المسرحيات، بل اتجه نحو تغيير شكل العرض المسرحي وبنائية المسرحية نفسها فجاءت عروض (نحن نفعل هذا، أتعرفون لماذا ؟) تأليف وإخراج عمر براق و (نبتة حبيبتي) تأليف هاشم صديق إخراج مكي سنادة و(حصان البياحة) تأليف د. يوسف عيدابي إخراج محمد شريف علي و (جوابات فرح) تأليف يوسف خليل إخراج صلاح تركاب .. وغيرها من العروض التي بدأت تمثل تغييراً واضحاً في شكل الحركة المسرحية في السودان بجانب مضامينها المستهدفة لتغيير المجتمع.

إن كانت تلك صورة للمسرحيات المؤثرة في التغيير الاجتماعي من التأليف السوداني ، فإن المسرحيين السودانيين _ في طريق الاستجابة للتغيير الاجتماعي أو المساهمة في إحداثه_ قد استعانوا ببعض المسرحيات من التأليف الأجنبي و العربي و الإفريقي، فمن أمثلة تلك العروض :

- مسرحيات مسودنة مثل مسرحية (مدير ليوم واحد) التي هي سودنة لمسرحية (الرجل اللى ضحك على الملائكة) لعلي سالم ، سودنة وإخراج عثمان أحمد حمد ومسرحية الزوبعة من تأليف محمود دياب سودنة يوسف خليل وإخراج عوض محمد عوض .
- ومسرحيات عربية عرضت بذات اللغة التي كتبت بها مثل مسرحية مأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور وإخراج عثمان جعفر النصيري ومسرحية (سقوط بارليف) تأليف هارون هاشم رشيد وإخراج عمر الخضر .
- كما لم تهمل تلك المرحلة المسرح الأفريقي فقدمت بعض العروض مثل مسرحيتي (أهل المستنقع) إخراج صلاح تركاب و(الأسد والجوهرة) إخراج عثمان علي الفكي وهما من تأليف ويلي شوينكا .
- أما المسرح العالمي فقد شاهد جمهور تلك المرحلة عدداً من المسرحيات مثل (ماراصاد) لبيتر فايس وإخراج عثمان جعفر النصيري ومسرحية إدوارد أولبي (قصة حديقة الحيوان) من إخراج سعد يوسف.

لعله يمكن ملاحظة أن المسرحيات المسودنة والعربية والأفريقية والعالمية يتم اختيارها من حيث الشكل والمضمون وفق الحاجات الفنية والاجتماعية لتلك المرحلة بحيث تسهم _ مثل المسرحيات السودانية التأليف – في تغيير المجتمع وتغيير شكل المسرح.

من كل ذلك يمكن القول إنَّ المسرح في تلك المرحلة قد لعب دوراً مقدراً في التغيير الاجتماعي ساعده على ذلك تبني الدولة للإنتاج المسرحي وتمويلها لعروضه وبناء عدد من المسارح بالعاصمة والأقاليم بجانب التأهيل الأكاديمي الذي حظي به المسرحيون سواء في الخارج أو بمعهد الموسيقى والمسرح الذي حاء تأسيسه في بدايات تلك المرحلة.

المرحلة الثانية:

جاءت المرحلة الثانية (1988– 2006) مختلفة عن المرحلة الأولى إذ إنها واكبت تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة و متلاحقة على المستوى المحلي والعربي والدولي، أثرت بشكل مباشر على المسرح نفسه . فقد استحالت المواسم المسرحية المنتظمة التي كانت تمولها الدولة إلى نشاط مسرحي متقطع بالعاصمة والأقاليم وتوقفت الفرق المسرحية التي كانت تعتمد على إنتاج الدولة (كفرقة عازة والمسرح الحر وأضواء المسرح ..الخ) ولم تستمر سوى فرقة الفاضل سعيد وفرقة الأصدقاء لأنهما من الفرق التي توفرت لها قواعد جماهيرية وفرت لهما التمويل كبديل لتمويل الدولة بجانب فرقة عماد الدين إبراهيم التي كانت كثيراً ما تعتمد في تمويلها على بعض المؤسسات الحكومية . رغماً عن ذلك فإن هذه الفرق قد تأثرت بارتفاع كلفة الإعلان وإيجار المسارح و الضرائب والرسوم المفروضة على المسرح كنتيجة لانتهاج الدولة لسياسة السوق الحر والانفتاح الاقتصادي ، فأصبح نشاط تلك الفرق _ أيضاً _ متقطعاً .

لكننا لا نهمل هنا نشاط فرق الهواة والشباب والمسرح التجريبي والمهرجانات المحلية إلا أنه لا يمكننا اعتبار هذا النشاط مؤثراً عند الحديث عن المسرح والمجتمع المتغير لأنه ليس من شاكلة العروض التي تشاهدها جماهير كبيرة أو تستمر عروضها لفترات طويلة.

إن خروج الدولة شبه الكامل من إنتاج العروض المسرحية قد أفسح المجال لما نسميه بالمسرح التجاري وهو مسرح لا يأبه كثيراً بإحداث تغييرات اجتماعية أو سياسية مقصودة ، حيث إنه لا يقحم نفسه في مناطق قد تؤدي إلى إيقاف السلطات لعروضه مما يشكل خسائر مادية كبيرة ، لقد تمكن المسرح التجاري من تثبيت أقدامه على حساب الكثير من التجارب الجادة القادرة على تغيير المجتمع التي لا تجد من يؤمن توصيلها إلى الجماهير العريضة .

لعل هذا المشهد هو ذات المشهد في الوطن العربي ، ففي دراسة للدكتور يوسف عيدابي للتيارات والاتجاهات الجديدة للمسرح في الوطن العربي بعنوان (نحو مسرح شعبي عربي) يقول : (لكن ما يحز في النفس أن يحرم الجمهور العربي من مشاهدة تجارب هذا التيار الفاعل وأن تظل العلاقات المسرحية الأصيلة الجادة محجوبة عن جمهورها المتعطش لها .. أو يعتم عليها غبار وضجيج المسرح التجاري الاستهلاكي الهابط الذي يخيم على الحياة المسرحية العربية).

لقد واكبت تلك المرحلة انتشار القنوات الفضائية والانترنت ، فلم يعد المسرح يواجه منافسة على الجمهور من قبل التلفزيون المحلي فقط ، بل تمكنت القنوات الفضائية من استبقاء عدد مقدر من جمهور المسرح في منازلهم . ومن جانب آخر فإن هذه القنوات قد أسهمت _ بقدر ما _ في التأثير على تذوق الجماهير للمسرح الجاد وهو جزء من تأثيرها في المجتمع نفسه الذي كادت أن تصبح المشكل الأول له وأكبر عوامل تغييره.كما أن هجرة المسرحيين السودانيين لبقاع العالم المختلفة كان لها أثرها الواضح في الحركة المسرحية ودورها في التأثير على المجتمع.

الخاتمة:

من كل ما تم ذكره في الصفحات السابقة يتضح لنا أن المجتمع في حالة تغير مستمر وتصدق هذه المقولة _ بشكل خاص _ على المجتمع المعاصر ، سواء قصدنا المجتمعات السودانية أو العربية أو الدولية ، ويرجع ذلك لتزايد سرعة إيقاع الحياة والصراعات المحلية والدولية وانتشار وسائل الاتصال .والمسرح كفن مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع ظل على الدوام متأثراً بالتغيرات التي تطرأ على المجتمع كما ظل مساهماً في إحداثها، غير أن هذا التأثير والتأثر يختلف كماً وكيفاً عبر المراحل المسرحية المختلفة.

إن تطبيق ما توصلنا إليه على المسرح في السودان قد بين لنا أن قبول المجتمعات السودانية للمسرح كفن وافد يشكل _ في حد ذاته _ مؤشراً لتغير المجتمعات السودانية نفسها. كما أن البدايات الأولى للعروض المسرحية قد واكبت تغيرات المجتمع المختلفة محاولة المساهمة في إحداث التغير الذي تتطلبه مراحل نمو المجتمع وتطوره ، فبدأت بتغيير نظرة المجتمع للتعليم والمتعلمين ثم انتقلت إلى محاولات تغيير المجتمع من عصبيات قبلية يغذيها المستعمر إلى وحدة وطنية.أما بعد انتظام المواسم المسرحية في السودان في عام 1967 وحتى نهايات 2006 _ التي كنا قد قسمناها إلى مرحلتين _ فإن المرحلة الأولى قد احتشدت بالعروض المسرحية التي كان لها دورها المقدر في إحداث التغيرات الاجتماعية ، أما المرحلة الثانية _ فلأسباب موضوعية كنا قد عددنا بعضها _ فلم يكن للمسرح مساهمة بذات القدر الذي كانت عليه في المرحلة الأولى .

التوصيات :

لعل ما توصلنا إليه في خاتمة هذه الورقة يدعونا إلى اقتراح بعض التوصيات التي نرى أنها قد تساعد في حل مشكل مساهمة المسرح في التغير الاجتماعي المطلوب ومجابهته لمظاهر التغير السالب الذي بدأ ينتظم المجتمع في ظل المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية المتسارعة.عليه فإننا نوصي بما يلي:

- من أجل أن يتمكن المسرح من تغيير المجتمع عليه أن يغير نفسه أولاً ، وذلك بابتداع شكل مسرحي جديد معتمد على التراث الشعبي للمجتمع المراد تغييره.
- زيادة الوعي عند المسرحيين بطبيعة التغيرات الاجتماعية ودراستها وفرز السلبي منها والإيجابي.
- تبني الدولة والقطاع الخاص للتجارب المسرحية الجديدة وتمكينها من الوصول إلى الجماهير العريضة.
- تقديم الدعم الكافي للمسرح لمواجهة إفرازات القنوات الفضائية بتشييد مسارح ذات طرز معمارية مختلفة وعدم الاعتماد فقط على الطرز الوافدة ونشر الثقافة المسرحية عبر الوسائط المختلفة.
- إحياء فكرة مسرح التلفزيون بتقديم عروض مسرحية جادة منقولة بالتلفزيون.
- كفالة حرية التعبير على خشبة المسرح.
- دعم الدولة والقطاع الخاص للبحث العلمي في مجال التراث الشعبي.

المراجع :

1. د . إبراهيم أنيس وآخرين ، المعجم الوسيط ، ط2 (القاهرة ، مجمع اللغة العربية (1972)
2. أرسطو ، فن الشعر ، تقديم د. إبراهيم حمادة (الشارقة ، مركز الشارقة للإبداع الفكري).
3. بابكر بدري ، تاريخ حياتي (الخرطوم، مطبعة مصر) بيتر بروك ، ترجمة: فاروق عبد القادر، النقطة المتحولة:أربعون عاماً من استكشاف المسرح (الكويت عالم المعرفة).
4. د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج2 ،ط4 (بيروت ، دار الكتاب اللبناني 1973).
5. حسن نجيلة ، ملامح من المجتمع السوداني (الخرطوم : الدار السودانية للكتب 1972).
6. د. خالد المبارك ، حرف ونقطة، ط2 (الخرطوم، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية ، 2005)
7. د. زكريا إبراهيم، مشكلة الفن (القاهرة ، مكتبة مصر) عثمان علي الفكي و سعد يوسف ، الحركة المسرحية في السودان (أمدرمان ، منشورات المسرح القومي ،1979).
8. د. يوسف عايدابي، مسرح لعموم أهل السودان الخرطوم ،منشورات المسرح الوطني ، 2006)